الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

كلية العلوم الاجتماعية والانسانية

كلية العلوم الاجتماعية

شعبة فلسفة

المستوى : السنة اولى ماستر

تخصص فلسفة عربية واسلامية

محاضرات في الفكر الجزائري

الاستاذ واحك مراد

السنة الجامعية 2020- 2021

المحاضرة الأولى: يوبا الملك المثقف

يعتبر يوبا الثاني من أهم الفلاسفة الملوك في العالم القديم ودوره لم يقتصر فقط على وظيفته كملك على مملكة موريتانيا بل تعدى ذلك إلى كونه فيلسوف ومؤلف في كل المجالات فقد جمع بين السلطة السياسية والثقافية والفلسفية في عصره لهذا يمكن أن يقال أنه جمع بين الملك والفلسفة في انسجام ومثل المفهوم الأفلاطوني عن رئيس الدولة الفاضلة لهذا ليس من الغريب "أن يعجب به أرباب الثقافة والعلم والفلسفة في عصره وقد صنف كتب باللغة اليونانية في مجالات معرفية عدة كالتاريخ والجغرافيا والفلسفة والأدب وفقه اللغة المقارن فتعجب من نبوغه فلوتارخوس ونصب له الأثينيون تمثالا في أحد مراكزهم الثقافية تقديرا لكفاءته الفكرية"

مولده ونشأته:

" يوبا الثاني ابن يوبا الأول ولد في سنة 50 ق.م في أول عهد ابيه في الملك ولما توفي والداه في سنة 46ق.م كان عمره أربع سنوات فأخذه يوليوس قيصر "، وقد حمله هذا الإمبراطور إلى " روما حيث نشأ في البلاط الفاخر وعاش في كنف الإمبراطور أوغسطس خلفة القيصر فعلمه الفنون والآداب والعلوم وشؤون الحكم في مدارس روما وأثينا ومعاهدها" وهكذا فقد انفصل ابن يوبا الأول عن البيئة المغاربية وبدأ في تلقي الثقافة الرومانية واليونانية وهذا ما سوف يكون لع تأثير في مرحلة حكمه كيف لا وقد اتقن اللغات الأساسية في عصره والتي تسيطر عليها الثقافة الهيلينية والهيلينسيتية* فقد " تعلم اللاتينية واليونانية وتضلع فيهما واتقن فنون الخطابة والشعر كما اتقن اللغة البونيقية" كانت تهدف روما من خلال الابقاء على ابن يوبا الأول في قصورها وفي مدارسها أن تجعله ملكا على منطقة نوميديا وهو الذي يحمل الدم الملكي من أبيه وهكذا سيتبع البربر يوبا الثاني ويخضعون له بالطاعة لأنه واحد منهم ، " وقد كانت موريتانيا كلها خاضعة للوصاية الرومانية على يد يوبا الثاني منذ 25 ق.م ويعني هذا أن يوبا الثاني الذي تربى في العاصة الإيطالية قد كان حليفا للرومان وتابعا وفيا لهم وصنيع في أيديهم لذلك سمحوا له بإدارة مملكتي موريتانيا الطنجية وموريتانا القيصرية على حد سواء"

اهتمامه بالشأن المعرفي والثقافي:

نادرا ما نجد في التاريخ اجتماع ثنائية: الملك والمعرفة في شخص واحد، لقد كان حُلم أفلاطون تأسيس مدينة فاضلة يحكمها فيلسوف ملك، حيث يجتمع لديه سلطتان : سلطة التحكم والسياسة وسلطة المعرفة والثقافة، وقد كان يوبا الثاني يحمل – بمعنى من المعاني – شخصية الفيلسوف الملك كما تصور ذلك أفلاطون في جمهوريته ، وقد جسّد يوبا هذه العلاقة بين المعرفة و السياسة في مدينة

شرشال حيث " يعتبر بعض المؤرخون مدينة قايصاريا "شرشال" بالجزائر الحالية المدينة الوحيدة التي اهتمت منذ القرن الأول قبل الميلاد بدراسة الفنون والآداب على الطرق اليونانية وكانت هذه المدينة عاصمة لمملكة يوبا الثاني الذي مارس في نفس الوقت الملك والفلسفة" ، ويعود أصل تسمية شرشال إلى يوبا الثاني نفسه فلقد كانت تسمى في العهد القرطاجي " يول" فسماها يوبا الثاني قيصرية...وذلك امتنانا لولي نعمته قيصر أوكتاف أوغسطين الإمبراطورالعظيم".

وقد كان اهتمام يوبا الثاني بالعالم والثقافة عظيما ولم يجاريه فيه إلا القلائل في التاريخ. فقد كان يملك مكتبة أو خزانة مملوءة عن آخرها بالكتب والمخطوطات التي يعود تاريخها إلى أجداده والتي حصل عليها من روما وأثينا، من خلال ذلك العمل الثقافي الكبير القائم على نسخ المصادر الاساسية للثقافة الهلينية و الهلينستية ، في هذا يقول المؤرخ اصطفيان أكصيل " وكان لابد له لإجراء بحوثه وكتاباته من خزانة حسنة ومن عدد كبير من الناسخين الذين لهم منزلة أعلى ... واشتهر عنه أنّه كان يُؤدي الثمن بسخاء فكان المحتالون يستفيدون منه دون حياء"

ومن أجل أنْ يستفيد يوبا من منتجات الثقافة اليونانية والرومانية التي كانت متقدمة بأشواط على الثقافة النوميدية ، حاول الاستفادة من خبراتها المعرفية والثقافية والحضارية بقدر الإمكان حتى يرتفع بمملكته إلى مستواها ولكي تكون مركز جذب ثقافي مماثل فوق أراضي الامبراطورية الرومانية. يقول عبد السلام بن ميس " لم يكتف يوبا الثاني باستقدام الفلاسفة والعلماء فقط بل استقدم أيضا الخطباء والنحويين ورجال المسرح وحتى الطبّاخين ولقد شرفه اليونان آنئذ بنحت تمثال له ووضعه أمام الخزانة الرسمية لمدينة أثينا القديمة ثم منحوه الجنسية اليونانية".

وقد كانت لهذه المثاقفة، تأثير على طبيعة الحياة الثقافية والعمرانية لمدينة شرشال وظهر ذلك في طبيعة العمران والديانة والثقافة في نوميديا ، فلم يكن خافيا على الملك يوبا الثاني أهمية الثقافة في عملية تمدين شمال افريقيا وخاصة أنّ أثينا وروما، كانتا تعدان بمثابة المراكز الثقافية الأساسية في العالم القديم، ولهذا لم يُمانع يوبا الثاني من أنْ يطلب من الإمبراطور نفسه المساهمة في هذه العملية فقد "كان يوبا يجلب هؤلاء العلماء والفنيين إمّا من اليونان مباشرة وإمّا عن طريق روما حيث كانوا يعملون في خدمة الإمبراطور الذي كان يرسلهم إلى يوبا بطلب منه ".

مؤلفاته:

تذكر المصادر التاريخية اليونانية والرومانية، أنّ يوبا الثاني قد ألّف الكثير من الكتب في شتّى المجالات والحقول وقد كان عارفا ومتقنا للغات الرئيسية لذلك العصر. التي من خلالها اطلع على مصادر ومؤلفات عصره فقد"كان يوبا يُحسِن البربرية التي هي لغة أبائه ويُتقنها وربّما يعرف أصلها وكان أيضا

يُحسِن اللاتينية واليونانية والفينيقية والأرمينية ومعرفته بهذه اللغات لم تكن سطحية بل كان يؤلف فيها التأليف أو يتكلم بها عن كثب"

ولكن كل مؤلفات يوبا الثاني، لم تصلنا. والامر راجع كما يذكر المؤرخون إلى عدم استقرار منطقة شمال افريقيا فتعرّضها المستمر إلى الاضطرابات السياسية، جعل من المستحيل أنْ يُحافظ على موروثها الثقافي والمعرفي الذي من بينه تراث يوبا الثاني. كما أنّ عدم تحول أهم المدن النوميدية إلى مراكز ثقافية دائمة جعل المعرفة تضيع إمّا من خلال الاهمال أم لعدم نسخها مرة ثانية وثالثة " والاخبار والمعلومات المتداولة في وقتنا حول مؤلفات يوبا الثاني هي اشارات وإحالات تضمنتها كتب كبار المؤلفين المعاصرين له والذين اتخذوها مصدرا من المصادر الرئيسية للكتابة عن منطقة المغرب وشمال افريقيا عموما فيوبا الثاني كان غزير الانتاج ألّف الكثير من الكتب ومن ضمنها ليباكس نسبة الى ليبيا وكتاب اكريولوجيا الرومانية حول تاريخ روما كما كتب كتابا عن المسرح في 18 مجلد وآخر عن الفنون عند الشعوب وجميع هذه الكتب ... وصلت أخبارها في مُؤلفات مؤرخين وجغرافيين استعانوا بيوبا كمرجع أساسي في مؤلفاتهم"

ومن هذه الكتب كتاب ليبيكا الذي يصف الجوانب الثقافية والعلمية السائدة في عصره محاولا تصحيح بعض المعلومات الشائعة حول عوائد الشعوب ولغاتها ووصف لبعض الحيوانات و سلوكياتها وقد استعان يوبا ببعض المصادر المشهورة فقد تكلم في هذا الكتاب " عن أصل البربر وعوائدهم وخصالهم ولغاتهم وعن وادي النيل والجزر الخالدة.....وعن الفيلة وذكائها وحياتها وعوائدها"3 و له كتاب المشابهات وهو مؤلف ضخم يحتوي على مقارنة الثقافات ببعضها وخاصة " بين الاشياء اللاتينية والاشياء اليونانية من عوائد وطباع وتقاليد واعتقادات". وكتاب عربيكا فهو على قول المؤرخين كتاب ضخم وضع فيه يوبا الثاني وصفا للجزيرة العربية من حيث الارض والسكان والعوائد والطباع واللغة وتاريخها والحيوانات المتواجدة عليها" ونباتاتها وعطورها ومعادنها واحجارها الكريمة".بل يذهب بعض الباحثين والمؤرخين أنّ اهتمام يوبا الثاني امتد الى " تاريخ الفن وألّف فيه وفي مشاهيره ولم يهمل الموسيقى التي وصف في كتبه انواعا منها تبِعا لبلدانها وكتب في المسرح وكان مولعا بالمسرحيات الماساوية"

اما في مجال الجغرافيا، فقد صحح يوبا الثاني الكثير من المفاهيم عن شمال افريقيا فقد كانت هذه المنطقة بالنسبة الى اليونانيين تبدو مجهولة وغير واضحة المعالم ، فمن خلال تدقيقاته الجغرافية لخريطة العالم القديم، اضحت مساهمات يوبا، ركيزة اساسية لليونانيين القدماء حيث ساهمت" مؤلفات يوبا الثاني في التقدم العلمي في مجال الجغرافيا فليس من باب الصدفة التاريخية تزامن دقة المعلومات حول

منطقة المغرب مع ظهور يوبا الثاني كمؤرخ وجغرافي فمؤلفاته ودوره العالمي هما اللذان جعلاه يحظى بتمثال في حدائق الحكمة في اثينا الى جانب فطاحل العلم وقتها"

وقد كان اهتمام يوبا الثاني بالعلم الطبيعي وبالجغرافيا كبيرا فلم يكتفي بما تضمنته الكتب من معارف ومعلومات بل كان يبعث الارساليات العلمية ليجري بحوثا حول الانهار والنباتات يقول عنه المؤرخ اصطفيا اكصيل" وزيادة على ما كان يستقيه من الكتب فانه فيما يتعلق ببعض المسائل كان يتمنى ان يكتسب معلومات مباشرة لذلك نظّم بعثات مكلفة بالبحث عن اصل النيل وعن جزائر كناريا"

الحياة العمرانية والاجتماعية في عاصمته شرشال:

لقد كانت الخلفية الثقافية والتعليمية ليوبا الثاني، خلفية هيلينية ومتشبع بالثقافة الرومانية ، الامر الذي كان له تأثير في نظرة يوبا الثاني لطبيعة العمران في مملكته وخاصته في عاصمته شرشال. فقد أخذ النمط العمراني لشرشال نمط العمران اليوناني والروماني في نواحيه الهندسية والزخرفية و في ابعاده الجمالية يقول عبد الحميد بن شنهو " وزيّن يوبا شرشال بالتماثيل العظيمة الدالة على فخامته وعظمة ملكه الذي اداره على النمط اليوناني والروماني من حيث الابّهة والفخر وشيّد قصورا ومعابد ومسارح متسعة وأمر بتشييد التماثيل في جميع مملكته" وكان غرضه في ذلك ان تصبح نوميديا على مستوى حضاري يساوي او يفوق ما وصلت اليه الحضارتين اليونانية والرومانية ومن اجل هذا عمل على استقدام المتخصصين في مجال العمران والنحت والنقش حتى تصبح مدينة شرشال كأحد المدن المتوسطية التي تجمع في هندستها العمرانية بين النمط اليوناني والروماني والمصري والمغاربي يقول المؤرخ اصطفيا اكصيل" فالملك يكون قد استدعى فنانين مزخرفين من ايطاليا ويمكن ان يكون هؤلاء من اصل اغريقي من بلاد الاغريق الكبرى او صقلية او احد بلدان الشرق ويمكن ان يكونوا قبل قدومهم الى قيصرية قد اشتغلوا مدة طويلة في روما"

وما يدل على ان يوبا كان منفتحا على كل الثقافات وليس فقط بالثقافتين اليونانية والرومانية ، المدفن العظيم المبني على شاكلة الاهرام المصرية الذي اقامه لزوجته كيلوباطرة سيليني التي هي مصرية الاصل* فقد كان هذا القبر يشابه القبر الفرعوني في ضخامته وفي طبيعته.الهندسية وهذا يدل على تأثر يوبا بالحضارة المصرية من خلال زوجته او من خلال الرحلات التي قام بها في شبابه وهكذا يخلد هذا القبر العلاقة المتينة التي ربطت بين يوبا وكليوباترا سيليني مخلدا وفاء يوبا لزوجته المصرية " مبني على نمط القبور الفرعونية وهو بناية عظمى قاعدتها مربعة قطرها 64 مترا وعلوها 46 مترا" 1وقد سمى اهل المنطقة هذه البناية بقبر الرومية

ولم يتوقف يوبا الثاني على تمدين نوميديا على المستوى العمراني فقط بل تعدى ذلك الى جميع المستويات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية " فقد شجّع الزراعة والصناعة والتجارة واقام مشاريع

صناعية كبرى في عدة مدن مثل صباغة الاصباغ الارجوانية وتمليح السمك يستعمل عوض التوابل لطهي الطعام"

ومن حيث الشأن الاداري اخذ يوبا الثاني النمط السياسي الروماني في طريقة حكم المدينة " اذا طالب بتكوين مجلس بلدي يتم انتخاب اعضائه الاحرار ويتولّى كل مجلس تسيير امور المدينة على غرار المدينة الرومانية"

يوبا الثاني وتأسيس للمدينة المتوسطية:

لقد كانت فترة حكم يوبا الثاني حوالي نصف قرن من 25 ق.م الى 23 م وهي فترة تميزت بالاستقرار نسبيا لهذا كانت مرحلة تتسم بالبناء والتشييد كما كان الملك نفسه محبا للحكمة وللبحث العلمي وذاع صيته في المدن الكبرى في العالم القديم كاثينا وروما باعتباره ملكا بل باعتباره مؤرخا وجغرافيا متميزا فقد اعتبره" بلوتارخوس الاغريقي صاحب كتاب حياة المشاهير افضل المؤرخين ...حيث كان واسع المعارف التاريخية مطلعا على علوم عصره ملخصا لقواعدها ومدونا في اصولها"

ولعل عدم وصول مؤلفات يوبا الثاني الينا يمنع من الجزم من القول تاثير يوبا من عدمه على مفكري عصره الا ان هناك الكثير من الاشارات تدل على حضور يوبا المعرفي في مؤلفات من عاصروه او في مؤلفات من اتوا بعده ويؤكد الباحث جميل حمداوي تاثير يوبا الثاني على علماء اليونان بقوله" لكن العلماء الاخرين من اليونان واللاتين هم الذين اخذوا الكثير عن يوبا الثاني فهم يعترفون بذلك رسميا في كتاباتهم ولا ينكرون ذلك كما هو حال المؤرخ بلين الاكبر الذي ذكر اسم يوبا الثاني مرات كثيرة في العديد من كتبه ومؤلفاته الموسوعية واعتمد عله ايضا بلوتارك في مؤلفاته التاريخية"

يمثل يوبا الثاني كملك ومثقف لحظة التقاء السياسي بالمعرفي فلم تمنعه وظيفته كملك من ممارسة المعرفة ومن البحث العلمي كما يمثل يوبا الثاني من جهة اخرى التقاء البعد المغاربي بالبعدين اليوناني والروماني فأصوله مغاربية وثقافته هيلينية وهلينسيتية بالإضافة الى هذه الابعاد ، هناك البعد الحضاري المصري الذي تسرّب من خلال زوجته كليوباترا سيليني وهكذا يمكن القول ان فترة حكم يوبا الثاني تمثل مرحلة تأسيس للمدينة المتوسطية بكل ابعادها المصرية والمغاربية واليونانية والرومانية

حياته:

الاسم الكامل لهذا الفيلسوف هو Lucius Apuleiustheseus عاش في القرن الثاني للميلاد ولد بمدينة مادورا (سوق أهراس حاليا) عام 125م، وبعد نهاية دراسته الابتدائية في مادورا تم إرساله إلى قرطاجة وتعلم هناك اللغتين اليونانية واللاتينية وأيضا الفلسفة، ثم رحل إلى أثينا وتعلم فيها الخطابة والموسيقى والشعر والعلوم الطبيعية والجدل والفلسفة وتعرف فيها على الديانات الشرقية واليونانية، وفي 150م ذهب إلى روما وبدأ في تعميق دراساته في الخطابة والقانون والديانات القديمة واشتغل محاميا بروما ،وأخيرا رجع إلى مادورا ثم إلى قرطاج حيث بدأ يبني في شهرته " وبعد فترة بدأ رحلته إلى الإسكندرية ليزور جامعتها وخزانتها المشهورتين آنئذ، غير أنه مرض وهو في طريقه إليها فاضطر إلى التوقف في مدينة أويا (طرابلس الحالية) ". وتزوج بأرملة غنية ولكن هذا الزواج لقي معارضة من ابنها ومن عائلة الأرملة لاعتقادهم أن أبوليوس يستغل ثروتها لتمويل بحوثه العلمية، حيث كان يقتني حيوانات نادرة لإجراء تجارب تشريحية عليها ، حيث اتهم بأنه مارس السحر عليها لإغرائها واكتساب عواطفها من اجل استغلال ثروتها ، فرفعت العائلة دعوى ضد أبوليوس وتولى فيها هذا الأخير الدفاع عن نفسه ودون مرافعته في كتاب سماه "الدفاع"، وبعد نجاحه في كسب القضية رجع أبوليوس إلى قرطاج حيث توفي سنة 170م ، لقد بلغ أبوليوس من الشهرة في عالم الخطابة والكتابة والعلم والفلسفة والمنطق حتى اصبح يقارن نفسه بسقراط وأفلاطون وبعظماء العصر" فهو يسمي نفسه في مخطوطاته التي احتفظت بشكلها الجيد : أبوليوس الميداوري الأفلاطوني حينا والفيلسوف الأفلاطوني حينا آخر، ولعله اتخذ هذه النسبة تمييزا له عن غيرة من الحكام والمحامين الرومان"

وهناك عامل مهم كان له أثر كبير وواضح في حياة أبوليوس وهو أنه ورث ثروة طائلة من والده سمحت له بأن يقوم برحلات كثيرة طوال عشرة سنوات " قضاها متنقلا من مدينة إلى أخرى في بلاد اليونان وفي آسيا الصغرى وفي ربوع الإمبراطورية الرومانية، حيث كسب معارف متنوعة وانتمى إلى عدة جمعيات كانت لها طقوس دينية خفية أبدى الكثير من الاهتمام بأسرارها وتعلم حتى الرقى والتمائم السحرية حبا في معرفة الحقيقة مما جعل فلسفته مليئة بهذه الأسرار الغريبة "

مذهبه الفلسفي:

لقد كتب أبوليوس في شتى الميادين فقد كان" هذا الرجل خطيبا ومحاميا وفيلسوفا وناقدا فنيا ومؤرخا ونحويا شاعرا ورياضيا ومنطقيا وعالم تشريح وعالم نفسي "، ولم يخرج فكر أبوليوس من الفضاء العقلي للعصرالهيلينستي ، وكما يرى أبو العيد دودو أن " هناك ثلاثة خصائص تميز بها القرن الثاني

بعد الميلاد تكونت منها شخصية أبوليوس هي: كونه من رعايا الدولة الرومانية، تلميذا معجبا بالفكر اليوناني ومتحمسا له وراهبا وثنيا عدوا للمسيحية "

وتظهر النزعة الأفلاطونية بصورة واضحة في مؤلفاته وخاصة ما تعلق الأمر بنظرية التذكر ونظرية المثل والحب والجسد والحب الروحاني حيث استعادها أبوليوس مبديا إعجابه بها إذ يقول في مؤلفه المرافعة " إذ ليس في جمال الأجساد ما يستحق الحب سوى انه تذكر الأرواح بجمالها الذي رأته في وجود سابق بين الآلهة نقيا وحقيقيا. لا يحب الحكيم بقدر ما يتذكر ذلك الوجود الأسبق ".

وبهذا يمكن القول ان الاتجاه الفكري لأبوليوس يمتد من الديانات المصرية التي تهتم بأسرار ما بعد الموت مرورا بالفيثاغوريين وفلسفتهم حول اسرار الأعداد والأشياء وقد تأثر بالأفلاطونية التي تقسم العالم والأشياء إلى عالمين وانتهاء بمعرفته لفنون السحر الغامضة، بهذا يؤكد مترجم كتاب الحمار الذهبي أبو العيد دودو بأن الفلسفة بالنسبة لأبوليوس " تتمثل في معرفة أسرار الطبيعة الخفية وعالم الأرواح وكانت طبيعته تميل إلى هذا الجانب الغامض من الحياة البشرية وكانت مشاركته في الأسرار الدينية تنم من جهة اخرى عن نزعته الدينية العميقة فقادته إلى الديانات الشرقية".

مؤلفاته:

•كتاب الدفاع :APOLOGIA وهو كتاب ألفه أبوليوس للدفاع عن نفسه ليرد عن تهمة السحر التي وجهن اليه وعلى نحو دقيق هو عبارة عن مرافعة أو خطبة تتميز بفن القدرة على تبرئة الذات من التهمة التي ألصقت به ولهذا النص " بجانب أهميته الأدبية وما يتضمن من معلومات حول سيرة حياة أبوليوس وشخصيته قيمة تاريخية هامة فهو يفيد في مجالات كدراسة الأسرة والقانون والسحر وأديان الأسرار في العالم الروماني ومدى التأثير الروماني واستمرار الثقافة الفينيقية في إفريقيا بعد ثلاثة قرون من ضمها ".

كتاب الأزاهير : FLORIDEوهو عبارة عن مجموعة من الخطب التي صنعت مجد أبوليوس في قرطاج حيث تتميز بالفصاحة والبيان والقدرة على المرافعة والدفاع عن الرأي، بعض هذه الخطب موجهة إلى حكام قرطاج والبعض الآخر إلى الفلاسفة وهي متنوعة حيث توجد تسع خطب من بينها " مقارنة بين نظر الرجل ونظر النسر وخطبة عن الهند وفلاسفتها وعن الإسكندر الشهير وتحتوي بعض الخطب عن الكلام في العناية الإلهية وعن جمال الببغاء وعن الفيلسوف بروتاغوراس ".

كتاب في علم الحساب تحت عنوان Arithméticaوآخر في علم الفلك تحت عنوان Astronomicaوكتب عن علم الفلاحة "

كتاب عن أفلاطون وتعاليمه :حيث يشرح فيه فلسفة أفلاطون في النفس والعالم والمثل.

كتاب إله سقراط De deo socrates: وهو عبارة عن خطبة ألفها في قرطاج يتحدث فيه أبوليوس عن طيبة الكائنات العاقلة : الآلهة والبشر والملائكة أو الشياطين " ويصنف أبوليوس هؤلاء الملائكة إلى اصناف حسب المهام، فهناك ملائكة الموت وهناك ملائكة النوم وهناك ملائكة الشعر و ملائكة الذكاء ولكل إنسان ملاك يرافقه وينصحه وإلى هذا الصنف ينتمي ملك سقراط"

كتاب التحولات أو رواية الحمار الذهبي : يرجح الباحث عمار الجلاصي أن رواية الحمار الذهبي كتبت بعد 170م وقد اقتبسها من كاتب يوناني حيث بقي ملخص من روايته ينسب إلى للقيانوس السموساطي معاصره السوري حيث " أن بطل هذه الرواية حمار أو بالأحرى إنسان مسخ حمار لكنه احتفظ بقدراته العقلية "، حيث تبتدأ الرواية من خلال ذك الفضول الذي يقود أبوليوس إلى معرفة أسرار السحر فيقع عن طريق الصدفة تحت تأثيره فيتحول إلى حمار ويدخل في مغامرات وينتهي به في النهاية إلى الخلاص من هذه التميمة عن طريق الآلهة.

فلسفته:

يرى أبوليوس أن الفقر ليس عيبا في الإنسان بل هو خادم ذلك أن استقراء تاريخ البشرية يكشف لنا أن الأغنياء هم الذين ارتكبوا أم الجرائم الفظيعة التي مرت عليها الإنسانية في المقابل نجد الفقر كما يقول "كان عبر القرون مؤسس كل المدائن ومبتكر كل الفنون "، فلولا الفقر لما وصل سقراط إلى حكمته وهوميروس إلى فصاحته ولما أسست الإمبراطورية الرومانية نفوذها وملكها فالثروة والفن من دون حكمة تضع صاحبها في أشنع الأخلاق وتضر الثروة صاحبها إذا لم يصحبها بالعقل يقول " الثروة الطائلة كالدفة الضخمة العملاقة تغرق أكثر مما تقود ووفرتها لا تنفع وزيادتها عن الحد تضر وإني لا أرى الأخلاق بالثناء بين أولئك الأغنياء من يعيشون عيشة وسطا "، فالفقير ليس ذلك الذي لا يملك الثروة والوسائل والقصور والرغبات بل ذلك الذي يرغب ويشتهي في امتلاك كل شيء" ففي لهفه على الربح أيا كان مصدره ولا تشبع جشعه جبال من ذهب بل يضل يستزيد ليضم شيء إلى رصيده السابق فذلك حقا هو الإقرار بالفقر.

ويذهب أبوليوس إلى القول ان الفقر في طلب الحاجات هو الغنى الحقيقي وبعبارة أخرى أن الذي لا يطلب الحاجيات ولا يرغبها غني في ذاته حيث يكتفي بالضروريات ولا يمتد بصره إلى الكماليات التي هي كثيرة جدا فكلما كان الإنسان أقل طلبا للحاجيات كان أكثر غنا وبعبارة أبوليوس تجعلك " شاهية التملك فقيرا والقناعة غنيا فسمة الفقر الرغبة وسمة الغنى الشبع "، لهذا كان الفلاسفة أكثر سعادة لأنهم يكتفون بالأشياء ولا يريدون ما ليس في مقدورهم وهم أقل رغبة في المشتهيات والمتطلبات.

فلسفة أبوليوس وتجلياتها في رواية الحمار الذهبي:

لم يكن أبوليوس فيلسوفا بالمعنى الذي كان عليه سقراط أو افلاطون أو أرسطو بل تفلسف على نحو مختلف بما يتناسب مع ثقافته وقدراته الخطابية الإقناعية والجدلية وهذا لا يعني انه كان بعيدا عن التفلسف الحق بل نجده قد ألف في المنطق ويرى البعض أنه قام بتجديد على مستوى المنهج ، وتعتبر رواية الحمار الذهبي او روايته في التحولات رواية ضمنها الفيلسوف الميداوري جل أفكاره الفلسفية و الدينية ورؤيته للإنسان والله والمجتمع حيث " اتخذ الرواية طويلة النفس مطية لوصف الأوضاع الاجتماعية وانتقادها في سخرية حينا وفي شدة وصرامة أحيانا وطرق بكيفية غير مباشرة موضوعا فلسفية مظهرا لنزعته الصوفية ولتشوقه للديانات الشرقية" .

من الفضول إلى المسخ:

تبتدئ الرواية بالاهتمام الذي أبداه أبوليوس بقصص السحر والأعاجيب التي سمعها من صاحبيه اثناء سفره وهو عند سماعه لهذه الأخبار تملكه الشوق والفضول لمعرفة حقيقة هذه القصص حيث كان سفره إلى مدينة تساليا من أجل أن يجد جوابا عن تلك التساؤلات التي كانت تختمر في ذهنه "ولمعرفة ما هناك من نادر ومعجم الأخبار مفكرا أني أدركت مركز تساليا الذي تجمع الألسن في كامل الأرض على الإشادة به كمولد فنون السحر".

لم يتوقف أبوليوس إلى هذا الحد بل دفعه فضوله إلى معرفة حقيقة وجوهر السحر نفسه ومعرفة كيف تصير الأشياء متحولة وإذا كانت بنفيلية زوجية ميلو الذي نزل ضيفا عنده تمارس السحر ومعروفة بعبقريتها في تحويل الأشياء والتحكم في مصائر الناس عن طريق تمائمها وطقوسها فإن أبوليوس لم يكن ليأبه بهذا كله بل يقول "لكني لفضولي الفطري حالما سمعت اسم السحر المحبب دوما إلى نفسي لم أدع الحذر من بنفيلية بل اتقدت رغبة في تلقي دروس بمثل خبرتها ولو بأبغض ثمن"لكن هذا الفضول الذي لم يضع العواقب بعين الحسبان كانت له عواقب وخيمة على مصير أبوليوس فيما بعد ،لقد رأى بأم عينيه كيف تحولت الساحرة بنفيلية إلى طير يقول متعجبا " لقد مسخت نفسها طيرا وبمحض إرادتها بينما تسمرت أنا الذي لم يفتني أي سحر مدهوشا ما يجري أمام عيني "

لقد كان حلم أبوليوس بعد ما رأى الساحرة بنفيلية تتحول إلى طير أن يتحول هو كذلك مثلها إلى طير من أجل غاية نبيلة قائلا" أحلق عاليا في السماء كالنسر رسولا أمينا لبوبتر الأعظم "، هذا ما وعد به أبوليوس الخادمة فوتيس التي كانت تعرف موضع المراهم السحرية لسيدتها بنفيلية وبعد إلحاحه عليها ناولتهم علبة المرهم يقول " ثم غمست يدي بلهفة فاغترفت منها كمية وافرة من الدهان دلكت بها كل أعضائي ثم أخذت أرفرف كالطير في محاولات متتابعة لكن لا ريش ولا زغب حتى بالعكس اخشوشن شعر بدني تماما إلى سبائب وتيبست بشرتي الرقيقة إلى جلد غليظ وفي أطراف أكفي اتخذت كل

الأصابع في حوافر ونبتت لي في العصعص ذنب كبير"، لقد كان تشابه العلبتين سببا في تحول أبوليوس إلى حمار وليس إلى طير كما يتمنى ومن هذه النقطة تأخذ الرواية منعرجا آخر منذ لحظة المسخ إلى حمار فعن طريق الحمار ذو الإدراك البشري يستطيع أبوليوس أن يقوم بمغامرات حيث تتكشف له الطبائع البشرية في مختلف تجلياها ويشير الباحث عمار الجلاصي عن سبب اختيار هذا الحيوان بقوله أن "اختيار الحمار الذي اقتبسه أبوليوس يعود إلى قدرته على التنقل وملاصقته للإنسان مما يسهل كتابة رواية فيها عدة مغامرات في أماكن شتى أبطالها بشر لكن قد تكون له دلالة فلسفية فالحمار في الديانة المصرية القديمة رمز للحمق والشر بينما البومة في الميثولوجيا اليونانية الرومانية طير اثينا مينيرفا إلهة الحكمة (في مقدمة مبادئ فلسفة الحق شبه هيجل الفلسفة بطير مينيرفا الذي لا ينطلق في الطيران إلا في الليل)".

من المسخ إلى المعرفة الخلاصية:

إن المسخ إلى حمار لا يوقف عملية المعرفة عند أبوليوس بل تأخذ طابعا آخر وهو معرفة طبيعة الناس وما يحكم ميولاتهم كما مكنه من معرفة بعض الأفكار الفلسفية من خلال الأسطورة التي أوردها الكاتب على لسان عجوز وهي خرافة الحب والنفس أو آمور وبسيشا حيث يظهر فيها أبوليوس متأثرا بفكرة الحب عند أفلاطون، وبعد ما يتعرض الحمار إلى مجموعة من الأحداث كالتعرض للضرب المبرح من طرف كل شخص ومن ثم محاولته الهرب مرة تلو الأخرى وحمل الأثقال التي تفوق طاقته وهو في كل مرة يكتسب فيها المعرفة إلى أن وصل إلى فكرة الخلاص من خلال هذا الجسد الذي هو للحمار يقول بعد هذه المعاناة الكثيرة "وان القدر لا ريب قد شفى غلته بكل ما أنزل بي من المصائب والنوائب فقدم لي أملا في الخلاص وإن أتى متأخرا فقررت أن أتضرع إلى الآلهة المتجلية ...فبادرت إلى تطهير نفسي بالاغتسال في البحر مغطسا راسي في لجته سبع مرات فقد أبان فيثاغور ان هذا العدد يناسب العبادات بشكل خاص أكثر من سواه"

لا شك أن هذا النص يبرز بوضوح النهاية الفلسفية التي تنتهي بها الرواية من خلال الخلاص من الجسد البهائمي بواسطة الطقوس الفيثاغورية ، الخلاص في هذا النص ليس فقط من جسد الحمار بل يذكرنا بالفكرة الأفلاطونية والمانوية والهندية في مفهومها للخلاص يقول أبو العيد دودو " لقد أصبح من حق بطل الرواية ان ينعم بالراحة في الفصل الحادي عشر من كتابه وأن يتخلص من آلامه ومغامراته المتنوعة ...كما أن عبادة الآلهة إيزيس قد تكون بمثابة معادل لاهتمامه بالسحر الأسود في الكتاب الأول فلهما جانبان ينتمي أحدهما إلى الآخر مجال الهوس بكل ما هو غير طبيعي بحيث يمكن أن نوضع القداسة المكتسبة في النهاية مقابل الخطيئة المرتكبة في البداية "

إن فضول أبوليوس غير محدود وتطلعه إلى الأعاجيب والأسرار انتهت به إلى النزول من صورته الإنسانية إلى صورة الحمار حيث تشير هذه الصورة إلى أقل بكثير مما كان يتطلع إليه أبوليوس ليكون طيرا فالمسخ إلى حمار يعتبر عقابا ولكن الانفكاك من هذه الصورة ومن هذا القيد يتطلب التخلص من عالم الحس ومن عالم الصورة المرئية والمجسدة وطلب العون من الآلهة لتهبه السعادة والخلاص وقد خاطبته الآلهة بقولها " لكن الحظ العمى الذي ألقاك طويلا في أسوء أهوال وأنكال قادك إلى هذه السعادة القدسية"

لهذا عهد أبوليوس لنفسه أن يخدم الآلهة وأن يقدم لها قرابين الشكر لأنها خلصته من صورته الحيوانية يقول " عدت إلى مشاهدة الإلاهة المحببة واستأجرت في فناء المعبد بيتا اتخذته سكننا مؤقتا مكبا في تبرع خاص على كل الطقوس المقدمة للآلهة ومندمجا في حياة الكهنة المشتركة معتكفا على عبادة الربة" ،ولم يتوقف الأمر عنده بعبادة الآلهة فقط بل انتهى إلى طريق التصوف والزهد بقوله " والزمت نفسي بالتقشف بالتخلي وامتنعت عن ذلك طوعا أكثر من العشرة ايام المقررة "، ولا شك أن نهاية الرواية بهذا الشكل له مرمى فلسفي وديني في الوقت نفسه فالرواية تحمل جوانب فلسفية من حيث أن الإنسان هو كائن فضولي متطلع إلى المعرفة كما ان حدود تطلعاته لا يحدها سقف فالطموح أن يكون الإنسان طيرا معناه الرغبة المتجددة في الإنسانية لكي تتطلع إلى السماء وإلى ما وراء الأرض كما أن فضول أبوليوس لمعرفة أسرار النحول على الأشياء هو محاولة الإنسان لمعرفة هذه الأسرار حتى وإن كانت هذه المعرفة تجلب خطرا وتكلف غاليا كما ان التحول إلى صورة حمار مع الحفاظ على الإدراك البشري والبحث عن الخلاص من هذه الصورة تعكس الرؤية الأفلاطونية والفيثاغورية للجسد باعتباره سجنا للروح وأن الخلاص يتم عن طريق مشاهدة الآلهة والفناء فيها ليتم تحرير الإنسان كليا من أغلال الجسد يؤكد عمار الجلاصي في هذا المعنى أنه بالإضافة إلى القيمة التاريخية لهذه الرواية كمصدر لمعرفة الديانات الغنوصية في الإمبراطورية الرومانية فإن هناك " قرائن عديدة تحمل على اعتقاد بأن أبوليوس أراد من خلال مغامرات حماره الممتعة تبليغنا رؤيته الأفلاطونية المحدثة وللمذاهب الغنوصية بمعنى الحياة الإنسانية " ،كما أن هذه الرؤية الأفلاطونية والغنوصية والدفاع عن عبادة الربة إيزيس هو بمعنى من المعاني الدفاع عن العقائد الشرقية التي تجد جذورها في مصر ورفض لآلهة الرومان التي ترمز للإمبراطورية الرومانية إذ " تتضمن نصوص لوكيوس كثيرا من المضامين الثورية التي يعتز فيها بأصله وثقافته الميداورية أو اللوبية ويدافع عن معتقداته وذلك بقدر رفضه للديانة الرومانية وانطلاقه في البحث عن ذاتيته الشرقية في اختياره لمعبودته إيزيس "، وبالرغم أنه لا يمكن الجزم في قضية السبق الزمني لأول رواية في

التاريخ لصالح أبوليوس غير أن روايته " تعتبر على أية حال أول رواية قديمة وصلت إلينا كاملة وشكلت نوعا أدبيا جديدا"

المحاضرة الثالثة: الأب دونا

مولده وشخصيته :

ولد دوناتوس في 273م بنقرين جنوب ولاية تبسة ويطلق عليه باللاتينية Donatus Negrinusتلقى تعليمه الأولي في مدينته واحتك بمبشرين مسيحيين حيث تلقّى على ايديهم مبادئ العقيدة المسيحية "وقد أتقن لغة الرومان بالإضافة الى لغته الكنعانية الفينيقية البونيقية وحين بلغ دوناتوس الثلاثين من عمره اصبح اسقفا لكنيسة نقرين" ، و" قد يكون قرأ أو تأثر في شبابه بمؤلفات المفكرة "بيربيتوا Perpetua "في تلك المناطق من نوميديا كما يكون قرأ مؤلفات المفكر المسيحي بونتيس pontus ويتوقع الباحثين في تاريخ الكنائس والمسيحية القديمة أن دوناتوس قد اطلع على هذه المؤلفات في شبابه لأنه ما كان لينبغ في العلم ويعرف المسيحية وكل تفاصيلها ويصبح مصلحا لها في تلك البلدة الجنوبية إلا بالاطلاع على أفكار سابقيه من المؤلفين إذ أن كل ما نعرفه عن دوناتوس نقله لنا أعداءه فقد تم حرق مؤلفاته وسيرته بعد القضاء التام على اتباعه وما بحوزتهم من وثائق ومدونات"، ولكن، بعد الصراع الذي كان بين دونا وأتباعه وبين اتباع الكنيسة الكاثوليكية برعاية السلطة السياسية الرومانية وبعدما تم الانتصار للمذهب الكاثوليكي المذهب الرسمي لروما توفي هذا الاسقف في سجون اسبانيا في 355م " وقد كان على مدي أربعين سنة مصدر إلهام هذه الحركة، كان هذا الرجل منظما وخطيبا وكاتبا بارعا وإنسانا مستقيما وكان فخورا ومملوء غيرة ويرفض أي تسوية ولقد فرض نفسه على أتباعه ان يعيشوا أسمى المستويات المسيحية وقد أظهر أوغسطينوس دائما احتراما وتقديرا لعظيمين لمناوئه دوناتوس ". ولا تتوقف شخصيته عند هذا الوصف بل يقول المؤرخ الفرنسي شارل اندري جوليان " على امتداد أربعين سنة كان هذا المصارع الرهيب بارزا على الأحداث ومن غير شك فإن التطور السريع للدوناتية يعود الفضل في تحقيقه له، كانت تتجمع في شخصيته سائر عناصر القائد والمنظم الأصيل والمستقيم والعقائدي والخطيب المفوه والكاتب الصلب والمدرب والمكون للرجال كان قاسيا على نفسه مثلنا هو على الآخرين ،كان أنوفا شرس الطبع كان يفرض المواقف على أساقفة الذين كانوا يعبدونه كالإله ".

فالدوناتية هي حركة دينية اصلاحية تعود الى مؤسسها دونا، وقد تطورت فيما بعد لتكون لها مطالب اجتماعية ويرى بعض المؤرخين من بينهم احمد توفيق المدني ان الدوناتية هي حركة دينية

توحيدية جاءت ضد التثليث الكاثوليكي حيث اخذت اصولها العقائدية من الاريوسية نسبة الى الراهب اريانوس البربري الذي دعى الى " الدين المسيحي الحق ، الطاهر الصادق الذي يقول أولا أن المسح ليس ابنا لله وأن قاعدة التثليث الأب والابن وروح القدس إنما هي ضد الحقيقة المسيحية وأنها بدعة ومخالفة فالله واحد والمسيح عبده ورسوله " 1، ومن المؤرخين اذين يرون ان الاختلاف بين الدوناتية والكاثوليكية هو اختلاف عقائدي وثقافي هو المؤرخ عثمان سعدي بقوله" ويختلف المذهب الدوناتي عن الكاثوليكي لاهوتيا فهو يؤمن بالطبيعة الواحدة للمسيح كما تختلف الدوناتية عن الكاثوليكية لغويا وثقافيا فلغة المذهب الدوناتي هي الفينيقية أي الكنعانية فالدوناتيون يصلون في كنائسهم بالفينيقية "

الدوناتية حركة دينية مستقلة :

كانت الإمبراطورية الرومانية قبل ظهور المسيح تدين بالوثنية أي الإيمان بالتعدد في الألوهة وقد استخدمت روما عقيدتها الوثنية كإيديولوجيا حربية ضد البرابرة وكثيرا ما شاع الاعتقاد أن روما انتصرت بآلهتها ومع ظهور المسيحية في بادئ الأمر اعتقد الرومان أن المسيحية ليست إلا فرعا من الديانة اليهودية وقد غضت الطرف عن نشاط جماعاتها في مرحلة انتشارها الأول ولكن مع تزايد عدد المسيحيين وظهور نسبة معتبرة اعتنقت هذه العقيدة شعرت روما بالخطر يهددها من هذه العقيدة الجديدة ذلك أن الأمر يتعلق بالتشكيك في العقيدة التي انتصرت بها روما وكسبت بها مجدها التاريخي فمن أجل أن تحافظ روما على روحها الوثنية أخذت على عاتقها محاربة هذه العقيدة الجديدة وخاصة ما بين فترة 284م-305م حيث كانت تتعرض الديانة المسيحية " لمضايقات كثيرة من قبل السلطة الرومانية التي كان حكمها بيد دقلديانوس الذي كان وثنيا يقدس التماثيل ويرى في المسيحية خطرا على حكمه وقد وقفت كنائس نوميديا التي كان اغلب أساقفتها من البربر بكل ثبات و صبر أمام اضطهاد الجيش الوثني للمسيحية فحين أن كنائس قرطاج ومحيطها فضلت عدم المواجهة المباشرة مع الإمبراطور الوثني وجنوده فكانوا يجيزون للمسيحي أن يخفي دينه وللأسقف أن يكذب حفاظا على الحياة والممتلكات"

نلاحظ أن هناك موقفين لكنائس شمال إفريقيا اتجاه الاضطهادات الرومانية. الموقف الأول: هو الذي اتخذته كنائس قرطاج التي مالت للتعاون مع الجنود الرومان بل والسماح بالارتداد عن المسيحية من أجل الحفاظ على النفس والموقف الثاني كنيسة نوميديا في شرق الجزائر حيث واجهت هذه الممارسات وقاومتها ولم ترضخ لروما وقدّمت في ذلك الكثير من الدماء.

بداية الصراع بين الدوناتية والكاثوليكية:

لقد كان اعتلاء الإمبراطور قسطنطين للعرش، تمثل مرحلة جديدة من حياة الإمبراطورية الرومانية حيث يمتد حكم هذا الامبراطور بين عامي 306م-337م وقد أعلن في سنة313م مرسوم ميلانو يقضي بإضفاء الشرعية على العبادة والشعائر المسيحية " وقبل هذا التاريخ في سنة 307م " أصدر مراسيم التسامح وعندما عين على رأس أسقفية قرطاجة التي تشرف على المسيحية في كل المغرب الأسقف كوسيليوس الذي تعاون مع محاكم التفتيش اعترض الأساقفة النوميديين أنْ يتولى قيادة المسيحية بالمغرب خائن للمسيحية وتمكن الأب دونا من جمع سبعين أسقفا لنوميديا قدموا عريضة رفض تعيين الأسقف الخائن وتأسس لذلك المذهب الدوناتي "

يتعلق الامر هنا بالنسبة الى دونا: انّ السلطة الدينية لا يجب أنْ يرأسها متعاون وخائن بل يجب انْ تسلم للمسيحيين الاطهار ، فليس في عقيدة الايمان المسيحي تنازل أو مداهنة أو ارتداد وقد وصف الباحث الانثروبولوجي والاجتماعي غابرييل كامب موقف دونا بالمتشدد بقوله" يعود الاصل في هذا الانشقاق الى التشدد الذي كان من بعض اساقفة نوميديا ورفضهم الاعتراف الذي تم لسيسيليانوس Cécilienاسقفا لقرطاج حيث ينتمي حسب زعمهم الى الذين سلموا الكتاب المقدس الى ولاة الامبراطورية"

يقوم موقف دونا من كنيسة قرطاج على رفض الاعتراف بها لأنها بحسبه لم يكن لها موقف واضح وثابت اتجاه الاضطهاد الروماني في عهد الامبراطور دقلديانوس وعلى اساس هذا الموقف سار دوناتوس في اتجاه اخر غير اتجاه الكنيسة الرسمية التي تدعمها السلطة الرومانية بل نادى ان رئاسة الكنيسة يجب ان تعود الى الاطهار وابناء الشهداء الذين ثبتوا على مواقفهم " وقد اعتبر دوناتوس الكنيسة الجديدة هي الكنيسة الكاثوليكية الحقيقية وسماها كنيسة الشهداء وبذلك ظهرت الحركة الدوناتية التي حملت اسمه والتي عرفت ايضا بحزب دوناتوس وهكذا انقسمت الكنيسة المسيحية وتكتل كل فريق لمواجهة الفريق الآخر فتزعم كايكيليانوس Caecelianus الكنيسة الكاثوليكية وهي حليفة السلطة الزمنية اما الكنيسة الدوناتية فترأسها الاسقف دوناتوس . " Donatus يظهر جليا أن دونا واتباعه لم يكن يرون المساومة في مبادئ العقيدة المسيحية وان اي تنازل فيها يعني الخروج من الدين ويوصف بالخيانة والمروق فالإيمان لا يقبل القسة او المداهنة والتنازل كما فعل بعض الاساقفة الذين سلموا الكتاب المقدس لجنود الرومان اثناء فترة الاضطهاد وبهذا فان الدوناتيون اتخذوا موقفا متشددا من الذين تعاونوا مع السلطة الرومانية " فالمقرّون بعقيدتهم اتخذوا موقفا متطرفا من المرتدين والمتخاذلين ورفضوا التعامل معهم باي شكل من الاشكال بعد انتهاء الاضطهاد سنة 305م"

الكنيسة الدوناتية والكنيسة الكاثوليكية :

الجدير بالذكر أنّ اتباع الكنيسة الدوناتية هم من السكان المحليين وقد شايع اغلب السكان المحليين دونا وايّدوا هذا التوجُّه الذي وقفه ضد كنيسة قرطاج التي تخاذلت اثناء سنوات الاضطهاد وتعاونت مع الوثنيين وسلمت الكتب المقدسة لجنود الرومان . وعادت مرة اخرى في تبعيتها للسلطة الرومانية بعدما تبنت المسيحية كدين رسمي للدولة وقد رفض دونا هذه التبعية " مؤكدا أنّ الكنيسة ليست لها صلة بالإمبراطورية و لكن روما لم توافقه على هذا. فأصرّ على رأيه وانتصر له عدد من الاهالي المسيحيين فنشأت الحركة الدوناتية واعتبرت نفسها هي الكنيسة الوحيدة اذ لم تتعامل مع الحكم الروماني الوثني"

كان هدف قسطنطين بعد تولّيه الحكم هو تعميم السلم والوحدة والانسجام في جميع اراضي الامبراطورية الرومانية ولم يكن ليسمح بظهور تيارات ومذاهب دينية تهدد سلامة الامبراطورية فقد"كان قسطنطين كرجل سياسي ملتزما العمل لمصلحة الكاثوليك هذا لانهم الجماعة المحافظة والذين يؤيدون النظام ويؤمنون بالوحدة والطاعة لأنظمة السلطة فضلا عن ان اساقفتهم كانوا مثقفين ويتحدثون اللاتينية ويحميهم اصحاب الاملاك الموسرين والارستقراطيين الذين كانوا يديرون الامبراطورية"

لقد اصبحت كنيسة قرطاج تابعة سياسيا للسلطة الرومانية ذلك أن انصارها المؤيدين هم من الطبقة الارستقراطية من المجتمع المغاربي وهذا ما خلق في نفوس الأهالي تمييزا بينهم وبين هؤلاء الأساقفة الحاملين للإيديولوجيا الرومانية ولا شك أن تدخل إمبراطور قسطنطين في شؤون الكنيسة وانتصاره للكاثوليك " أول تجل للحكم المطلق الذي أخضع الكنيسة للمشيئة الإمبراطورية وقيدها بالضرورات السياسية ولم يكن للدوناتيين أن يقبلوا بمثل هذا التدخل الدنيوي في شؤون الدين "يقول عبد السلام بن ميس "كان الدوناتيون يرفضون الكنيسة الرسمية التي كان يمثلها القديس أوغسطين ...لما أصبحت تقدس الأشخاص وعلى رأسهم الإمبراطور والبابا وكانوا يطلبون بعدم تدخل السلطة المدنية في الدين "

كان يهدف دونا الى تحقيق الاستقلال الديني عن السلطة الرومانية وان الاساقفة هم الذين يتولون تنصيب الزعيم الروحي للكنيسة وأن لا يكون تابعا لأحد بل يهدف إلى خدمة المسيحية ونشر الاخلاق الفاضلة على مستوى الاهالي" لقد اطلق الاب دونا صيحته الشهيرة لا علاقة للمسيحية بالإمبراطور والامبراطورية – الله ارسل المسيح لإنصاف المستضعفين"

.

ذلك انّ إتْباع الكنيسة للسلطة المدنية، ستصبح مجرد أداة في خدمة الامبراطور وسياساته وستبتعد بذلك من خدمة الاخلاق المسيحية بل ولن تخدم المستضعفين من الاهالي فالحركة الدوناتية تعارض بشكل " مبدئي نظام الكنيسة الكاثوليكية العالمية والميثاق الواضح الذي قطعته مع الحكام الرومان وبينما كان الكاثوليك يتكلمون اللغة اللاتينية التي يتحدث بها الجنود والحكام كان الدوناتيون يتحدثون في غالبيتهم اللغة الامازيغية"1

الدوناتية كمقاومة اجتماعية ودينية لروما الكاثوليكية:

لا يمكن فهم العمل الكبير الذي قام به دون العظيم ونظرته البعيدة دون معرفة الدوافع الحقيقية التي جعلته يؤسس كنيسة جديدة في شمال افريقيا . لقد ابصر بلا شك التوظيف البراغماتي للدين عند الامبراطورية فمرّة تضطهد المسيحيين ومرة توظفهم في اعمالها السياسية ففصل الدين عن الدولة يعني عند دونا ابعاد الدنيوي المتغير عن الدين الذي هو في حكم الطهارة كما ان الدين يجب ان يحافظ على بعده المتعالي والمقدس دون ان يكون حقلا للتوظيف السياسي الذي يدنس الدين فالدوناتيون" اعتقدوا ان عفوية الكنائس يجب ان تبقى محصورة بالمسيحيين المخلصين والحقيقيين من دون سواهم ولكنهم كانوا يصرون على ان يظهر الوافدون الجدد حقيقة ايمانهم مع عزمهم الاكيد على ان يقفوا بجانب هذا الايمان ابان الاضطهادات اما المبدأ الثاني الذي كانوا يتمسكون به باعتزاز فهو الاستقلالية كانوا يرغبون في ان تبقى الكنيسة غير مرتبطة بالدولة، متحررة من قيود هيمنة الإدارة الهرمية الكاثوليكية التي كانت تزيد أكثر فأكثر من تركيز إدارتها في روما"، ولقد كان يمثل أوغسطين خط الكنيسة الكاثوليكية في شمال إفريقيا حيث كان يدافع عن ربط السياسة بالدين وكان يدافع عن تبعية الكنيسة للمؤسسة السياسية في روما وقد وصف أوغسطين الحركة الدوناتية بالحركة المنشقة صاحبة الهرطقات "وممثلي الكنيسة الرسمية خاصة مع القديس أوغسطينوس يدور حول طبيعة الكنيسة الحقة حسب الكتب المقدسة "

امتد النقاش بين دونا وأتباعه وبين خصومهم الكاثوليك حول أسس العقيدة المسيحية وماهي الكنيسة التي يجب ان تمثل هذه العقيدة على أرض الواقع بل يرى الكثير من الباحثين أن عمق الخلاف بين الدوناتيين والكاثوليك يرجع إلى قضية طبيعة المسيح يقول الكاتب المعاصر ميشيل موسى في كتابه عندما تموت الأساطير" أن الخلاف الجوهري بين الدوناتيين والكاثوليك هو أن الدوناتيين رفضوا مفهوم اعتبار المسيح أيضا كإله بعدما أقرت الكنيسة في مجمع نيقية ان المسيح والله واحد كما فعل أوغسطين الذي جاء لاحقا ليعمل على نشر عقيدة التثليث بأن الرب والمسيح والروح القدس كلهم إله" ويرى المؤرخ أحمد توفيق المدني أن دونا قد تأثر بعقيدة أريوس التي تقول بالطبيعة البشرية للمسيح وهي الفكرة المخالفة للتثليث الكاثوليكي من هذه العقيدة انطلق دونا في " تحطيم السلطان الروماني "

.

إن هذا الخلاف في تعيين الأسقف لكنيسة قرطاج الذي رفضه دونا وجد من يؤيده من رجال الدين ومن المجتمع في نوميديا "واعتمد الدوناتيون على الطبقة الاجتماعية التحتية يستمدون طاقتهم ويستوحون اتجاههم ومواقفهم من مطامحها بينما عكست الكنيسة الكاثوليكية الاتجاه الأرستقراطي الفوقي واستمدت أفكارها من خلفيتها السياسية الموالية للدولة وهكذا برزت الدوناتية كدين للفقراء المستغلين في عبرت الكاثوليكية عن التحالف المصلحي بين الطبقة الأرستقراطية والسلطة الرومانية ".

وهكـذا يمكـن القـول أنـه مـع دونا بـدأ الـوعي بالهويـة النوميديـة في التشـكل كـذات مسـتقلة عـن الاسـتعمار الرومـاني وعـن الهيمنـة الكاثوليكيـة التابعـة لـه، ذلـك لأن " تبـني الدولـة للديانـة المسـيحية قـد اعتبره الأفارقة والنوميديون خاصة ضربا من الهيمنة الروحية فرفضوها وقاوموها " .

يتعلـق الأمـر أن تأسـيس الشـعور بالهويـة النوميديـة يكـون علـى جهتـين : الجهـة الأولى القـول ببشـرية المسـيح وهـو مخـالف للنظـرة الكاثوليكيـة للمسـيح باعتبـاره إلـه الشـيء الـذي يعطـي للـدوناتيين حجـة للمقاومـة ، الجهـة الثانيـة: إيجـاد أسـاس اجتمـاعي لحمـل هـذه المهمـة في المقاومـة بالتفكـير في ايجـاد كنيسـة خاصـة بالنوميـديين معـبرة عـن وضـعية الأهـالي وثقـافتهم ذلـك أن الكنيسـة الرسميـة الـتي تمثلهـا قرطـاج متعاونـة مـع السـلطات الرومانيـة فقـد أصـبحت هـذه الأخـيرة " منـذ مطلـع هـذا القـرن نصـيرا للنظـام الاسـتعماري متخليـة عـن أهـدافها الداعيـة لنشـر العدالـة والمسـاواة وكـان ذلـك إثـر الامتيـازات الهائلـة الـتي حظيـت بهـا بعـد تنصـر السـلطة الرومانيـة وكـان مـن الطبيعـي أن يـترك هـذا التحـول شـعورا بالامتعـاض وسـط الفئـات المحرومـة الـتي أصـبحت تنظـر إلى الكنيسـة بعـد التحـالف الـذي جمعهـا بالسـلطة السياسـية في مطلـع القـرن الرابـع علـى أنهـا ذلـك الجهـاز السـلطوي لخدمـة مصـالح الدولـة الرومانيـة هـذا الإحسـاس الـذي دفـع نسـبة كبـيرة مـن المسـيحيين إلى الانفصـال عـن الكنيسـة الكاثوليكيـة والانضـمام إلى الدوناتيـة وهكـذا تحولـت هـذه الأخـيرة مـن مجـرد انشـقاق في الأوسـاط اللاهوتيـة إلى حركـة ذات طـابع إيـديولوجي معاديـة للسلطة الرومانية "

وقـد اسـتخدمت السـلطة الرومانيـة العنـف مـن أجـل فـرض السـلام والـوئام في شمـال إفريقيـا وقـد وجـدت دعمـا مـن طـرف الأسـاقفة القرطـاجيين ومـن الطبقـة المنتفعـة مـن الوجـود الرومـاني الشـيء الـذي خلـق تمييـزا بـين طبقتـين اثنتـين الطبقـة المنتفعـة مـن الوجـود الرومـاني ويـدخل فيهـا رحـال الـدين الـذين يتبعـون السـلطة السياسـية في رومـا وأصـحاب الأراضـي والأمـلاك، أمـا الطبقـة الثانيـة فهـي الطبقـة الكادحـة الـتي تمثـل باقـي الشـعب وقـد أدى اسـتخدام رومـا للعنـف إلى حمـل الشـعب النوميـدي علـى المقاومـة فقـد كـان " اعتمـاد الكاثوليـك علـى عصـا رومـا مـن أجـل ارجـاع الـدوناتيين إلى الكنيسـة الرسميـة أثـره البـالغ في دفـع الـدوناتيين إلى تنظـيم المقاومـة في أوسـاط الأهـالي النوميـديين الـذين كـانوا مهيئـين لـذلك وقـد أصـبحت النحلـة الدوناتية دينا وطنيا يجمع حوله مختلف الفئات الشعبية الناقمة على الوضع "

الـدوناتيين إلى تنظـيم المقاومـة في أوسـاط الأهـالي النوميـديين الـذين كـانوا مهيئـين لـذلك وقـد أصـبحت النحلة الدوناتية دينا وطنيا يجمع حوله مختلف الفئات الشعبية الناقمة على الوضع ".

يمكـن الترجـيح أن الدوناتيـة عنـدما أسسـت كنيسـتها ورفضـها للكنيسـة القرطاجيـة التابعـة للوجـود الرومـاني كانـت تهـدف في الحقيقـة إلى التفكـير في مشـروع اسـتقلالي عـن رومـا، وهـي بـدعوتها إلى فصـل الكنيسـة عـن الـدين كانـت ترمـي إلى عـدم التـدخل السياسـي النفعـي المصـلحي في الـدين كممارسـة تطهريـة

ومقدسة ذلك أن الحقيقة الإيمانية إذا خضعت لمتطلبات ما هو سياسي سيؤدي ذلك إلى إخضاع الحقائق الإيمانية والعقائدية إلى ضرورات الواقع السياسي المستجد و بالتالي سيكون الدين والعقيدة خاضعين للأهواء وهذا ما فعله قسطنطين في مجمع نيقية عندما انتصر للأسقف إيثناسيوس الذي كان يدعوا إلى التثليث ضد الأسقف أريوس الذي كان يدعوا إلى الطبيعة الواحدة للمسيح فلو كتب للدوناتية النجاح في التاريخ لكان التاريخ المسيح في الغرب تاريخا آخر.

المحاضرة الرابعة : القديس أوغسطين

مولده ونشأته:

يعتبر أوغسطين من الفلاسفة الذين أثروا في فكر القرون الوسطى بتلك النزعة الايمانية التي شعارها آمن لكي تتعقل و قد اشار عبد الرحمن بدوي الى أنّ اوغسطين لا ينتمي الى فلاسفة القرون الوسطى بل هو فيلسوف من فلاسفة عصر الأباء. وهو فترة ممهدة للقرون الوسطى.

ولد في مدينة طاغشت (Tagaste سوق اهراس) عام 354 م ، من اب وثني يدعى باتريكيوس ومن ام مسيحية تدعى مونيكا " درس في مدرسة هذه المدينة اولا وانتقل منها الى المدارس الاخرى المشهورة في نوميديا وخاصة مدرسة قرطاجنة ولقد كان اوغسطين مرهف الاحساس قوي العاطفة كثير التأثر ، جامعا الى جانب هذا بين ورع قوي ورغبة شديدة ملحة في انتهاب والاخذ بأكبر نصيب من الحياة" ، ويمكن أن نساوق بين حياة اوغسطين و مساره الفلسفي وتقسيمها الى مراحل وهي:

ا- المرحلة الحسية: حيث تطغى في هذه المرحلة من عمر اوغسطين الجوانب الحسية والشهوانية بالرغم من ايمان اوغسطين بالمسيحية التي تلقاها من امه ، الا ان تأثيرها في حياته وسلوكه لم يكن عميقا " فانفتح امامه باب اللهو واسعا ولها بأقدس المحرمات وتعرف الى امرأة ساكنها واستولدها طفلا سمّاه اديودات ولم يأبه لنصائح امه وتوجيهاتها الحكيمة فتسلحت بتقوى الله والصلاة للتغلب عليه في محنته"

ب – مر حلة التعليم الفلسفي: " حيث بدأ أوغسطين حياة الطلب في قرطاجنة وابتدأ دراسة الفلسفة 373 م بقراءة شيشرون اسمه Hortensius فكان هذا الكتاب أول دافع له على التفكير واول موقظ للروح الفلسفية عنده" حيث دفعته مطالعاته الى الى طرح اسئلة : ما مصدر الشر؟ ماهي الحقيقة؟ ما هي طبيعة المعرفة؟

ج – مرحلة التعليم المانوي: لقد اعتنق صاحب كتاب الاعترافات بعض مبادئ العقيدة المانوية من ابرزها القول بوجود جوهرين في تكوين العالم احدهما جوهر الخير والآخر جوهر الشر وكل جوهر يمثله إله ولعل اعتناق المانوية استهوت اوغسطين لأنها تبرر نزعته نحو حياة اللهو واللذة " فالشر عنصر اساسي في طبيعة الحياة الانسانية لهذا وجد اوغسطين ما يبرر النزعة الى الشر وهي موجودة عنده– بمعنى الانصراف الى اللذات الحسية"

د – مرحلة الشك: ولما كان من اطلاع اوغسطين على كتب الرياضيات والحساب واعجابه الشديد التي تتميّز به هذه العلوم العقلية فقد قارن بينها وبين تعاليم المانوية ومعارفهم فاتضح له ، أن كتب المانويين تعج " بالخرافات لا حدّ لها عن السماء والنجوم والشمس والقمر وكم تمنيت لو يشرحها لي بدقة ويقارن بينها وبين سواها من الشروح المرتكزة على الحساب التي اطلعت عليها في محل آخر" ولكن هذا الشك الذي مارسه اوغسطين لم يكن شك سلبي بل إنه شك ايجابي دفعه الى البحث عن المعرفة الحقة.

هـ – مرحلة الايمان: لقد تعرف اوغسطين في رحلته الى روما في 385م على القديس امبروزيوس ومن خلاله تعرف على المسيحية وعمّد تعميدا مسيحيا على يدية في " 24 ابريل 387م وبعد ذلك بدا يصبح رجل دين"وفي هذه المرحلة التي انتهى اليها اوغسطين تبنى المنهج الحدسي من اجل معرفة الحقائق الايمانية الخاصة بالعقيدة فالحقيقة الدينية ليس لها مصدر موثوق به غير الروح"

مؤلفاته:

من اشهر كتب اوغسطين على الاطلاق اثنين هما: كتاب الاعترافات حيث يسرد فيه المؤلف قصة مساره في البحث عن الحقيقة وانتقاله من حياة اللذة واللهو الى التردد على المانويين والدخول في مرحلة الشك الفلسفي وثم تبنيه للأيمان المسيحي كحقيقة مطلقة وهذا الكتاب اعنى الاعترافات" مشهور في الآداب العالمية لسمو اسلوبه وقوة تأثيره ودقة التحليل النفساني وعمق النظرات الفلسفية" وكتاب مدينة الله وهو كتاب في فلسفة التاريخ يدافع فيه عن الديانة المسيحية ضد اقوال الوثنيين حيث " اخذ اوغسطين القلم يرد عليهم فاتسع امامه مجال القول حتى انتهى الى كتاب جامع في فلسفة التاريخ هو كتاب مدينة الله بدأه سنة 413م وفرغ منه 426م خصص المقالات العشر الاولى لنقد الوثنية ، معتقداتها واخلاقها ومذاهبها الفلسفية والمقالات الاثنتي عشر التالية : للتاريخ العام ومغزته"

بالإضافة الى اعتناء اوغسطين بالدفاع عن العقيدة المسيحية ضد التيارات الدينية المنشقة عن العقيدة التثليثية وضد التيارات الفلسفية والمانوية التي تتعارض مع نصوص الكتاب المقدس وكتب في ذلك مجموعة من المحاورات " التي يطلق عليها كاسيكياكوم وهي اربع : ضد الاكاديميين ، وفي النظام والحياة السعيدة ومناجاة النفس....وبعد تعميده كتب مجموعة من الاعمال الهامة منها : في خلود

النفس وفي الموسيقى وفي كمية النفوس وفي حرية الاختيار و في حقيقة الدين وفي سفر التكوين ضد المانوية". يظهر جليا ان الكتب الاربعة التي كتبت قبل التعميد من سنة 386م الى 387م امتازت بظهور النزعة الفلسفية في الرد على الخصوم واعمال العقل في الرد على الافكار المخالفة اما بعد التعميد فقد تجلى البعد الديني واضحا وخاصة في كتابيه: الدين الحقيقي وفي الكنيسة الكاثوليكية2 وقد توفي اوغسطين في 430م وقبل هذا التاريخ بثلاثة سنوات " رأى ان يعود على مؤلفاته يراجعها ويثبت حكمه فيما تضمنت من آراء اقرارا او رفضا او تصحيحا فكان من ذلك كتاب الاستدراكات"

مكانة الفلسفة في فكر أوغسطين :

لا أحد يشك أن القديس أوغسطين هو رجل دين قبل أن يكون فيلسوفا ولعل صفة القديس تطغى على أوغسطين أكثر من صفة لقب الفيلسوف بل في نظره أن غياب اسم المسيح من أي كتاب سيفقد بريقه لديه وهو في ذلك يعترف في كتابه الاعترافات بتوقف الروح الفلسفية عن التقدم في البحث عندما يغيب اسم اليسوع ، يقول" فقد دفعني إلى البحث عنه تحريض المؤلف الشديد على أن أحب وأن أسأل وأرجو وأعتنق بكل إخلاص لا هذا المذهب الفلسفي أو ذاك بل الحكمة عينها لكن حماسي خف لأمر واحد وهو أن اسم المسيح غائب عن ذلك الكتاب "ومع ذلك يمكن القول أن صاحب كتاب الاعترافات قد تأثر بالأفلاطونية المحدثة" والعامل الأساسي الذي جعله يحجب بالأفلاطونية المحدثة وجود نزعة عقلية فيها ثم إنه رأى الأفلاطونية المحدثة تتفق تماما مع العقائد المسيحية " ،بالإضافة إلى ما تزخر به من نزعة روحية ووجدانية تعلي من شأن الروح وتمجد جمال وكمال العقل الأول أي أن الأفلاطونية كمذهب فلسفي أقرب إلى المسيحية بينما المشائية الأرسطية لا تتناسب مع العقيدة المسيحية بما تنادي به من احترام العقل بتقديم قواعد القياس المنطقي في براهينها الفلسفية بل نجد أوغسطين ينتقد أرسطو صراحة بقوله" وأي نفع جنيت من قراءة كتاب أرسطا طاليس المقولات العشر الذي فهمته لوحدي؟ ...يتناول المؤلف في كتابه جواهر الكائنات وأعراضها...وماذا جنيت سوى الضرر واعتقدت أن هذه الأجناس العشرة تحتوي كل موجود وحاولت أن أدركك فيها يا إلاهي...وما فائدتي من كتب كثيرة صعبة فهمتها بلا مساعدة طالما أني اعتنقت كل ضلال فيه شناعة وقباحة وانتهاك لأقدس الحرمات"

يتضح مما سبق أن أوغسطين يرفض المقولات الأرسطية والفلسفة الأرسطية عموما لأنها غير قادرة على احتواء مبادئ العقيدة المسيحية ويرى عبد الرحمان بدوي أن أوغسطين " ظل بعيدا عن التأثر بالمدارس المشائية وبأرسطو كل البعد لأن فكر أرسطو لم يكن يلائم مزاجه وكان تفكير أرسطو يقوم

على الواقع ولا يؤمن ولو ظاهريا فقط بالحقائق العلوية التي تعد الأساس الذي يقوم عليه بناء المسيحية المذهبي"، وعلى هذا الأساس لا يمكن أن تقود الفلسفة في نظر أوغسطين إلى الحقيقة بل "إن الكتاب المقدس في رأيه هو مصدرنا الوحيد للحكمة" ومع ذلك تسمح لنا الفلسفة بالوصول إلى الحقائق الطبيعية والرياضية وتسمح لنا أيضا بفك الغموض عن الحقائق الإيمانية المسيحية التي تبدوا للذهن العادي أنها محل تناقض، والمؤكد أن أوغسطين يجعل الفلسفة في المرتبة الثانية بعد الإيمان بل إن الفلسفة الحقيقية هي التي تنهل من حقائق الكتاب المقدس والعقل وحده عاجز عن إدراك حقيقة العالم وعاجز عن إلزام الإنسان لكي يسلك طريق الفضيلة في حياته اليومية " والمسيحية وحدها تعرض علينا الحكمة كاملة عن الله والنفس وتوفر لنا الوسائل وهي النعم تحملها إلينا الأسرار المقدسة فإذا أردنا السعادة وأردنا الحكمة وجب علينا الإيمان والعمل به ".

الإيمان والعقل عند أوغسطين :

لقد كانت مشكلة الفلسفة المسيحية منذ اصطدامها بالموروث اليوناني الفلسفي هو التوفيق بين حقائق الإيمان وحقائق العقل الفلسفي ويعتبر أوغسطين من الفلاسفة الذين حاولوا خيط رابط بين الإيمان ومقتضيات العقل الفلسفي وباعتباره قديسا مؤمنا بالكتاب المقدس وضع النص الإنجيلي فوق شكوكية العقل النقدية وخاصة وأن المسيحية كعقيدة تزخر بالكثير من الأسرار التي تتجاوز فهم العقل من بينها قضية الإله المتجسد في إنسان " حيث تعتقد الكنيسة أن يسوع المسيح إله تام وإنسان تام ، لأنه لو كان إله فقط وكانت إنسانيته مجرد وهم فكيف يكون دخول اللاهوت إلى البشرية ليقدسها؟ ولو كان المسيح إنسان فقط فكيف يكون جسرا به تنقل إلى الإنسانية الحياة الإلهية نفسها؟ ولو كان اللاهوت والناسوت المسيحي منفصلين فكيف يتم بين الله والإنسان ذلك الاتحاد الذي تتجدد به الإنسانية وتتأله؟ "

نحن أمام عقيدة تقوم على الأسرار كسر التجسد وسر الثالوث المقدس وسر الفداء و" لم تدخل المسيحية عالما خاويا بل وجدت عقول الناس حافلة بشتى الأفكار عن الكون والخطيئة والثواب والعقاب وقد تناولت هذه الموضوعات وهذبتها وتفاعلت معها، لم تغرس المسيحية بذورها في أرض عذراء بل أخذت المواد الموجودة يومئذ وأقامت عليها كيانها"

وهكذا يعمل أوغسطين على الدفاع على العقيدة المسيحية بوصفه مؤمنا بالمسيح أولا وبوصفه قديسا ثانيا، فقد وضع نفسه في خدمة الرب وهو ما يعني أن يكون التفكير والتعقل خادما للقضايا الإيمانية. فأوغسطين هو أوّل من حاول، انطلاقا من إيمانه الراسخ بالعقيدة المسيحية القويمة: أنْ يوضِّح الدور الذي يمكن أنْ يلعبه العقل في حياة كل مؤمن يتأمّل عقيدته تأملا فلسفيا.

ولا شك أن الديانة المسيحية في زمن اوغسطين، قد عاصرت مجتمعا وثنيا مشبّعا بمختلف العقائد الوثنية و تتقاسمه تيارات فلسفية كالرواقية والأفلاطونية المحدثة والأرسطية والأفكار المانوية كما أنّ تحول الإنسان من وضع غير إيماني إلى حالة إيمانية يدفع به إلى طرح الكثير من التساؤلات عن العقيدة الجديدة التي اعتنقها. كما أن موروثه العقائدي والفلسفي الذي شكل عقله منذ نعومة أضافره، لن يزول تماما، بمجرد اعتناق العقيدة الجديدة بل سيتحول هذا الموروث، إلى استفهامات وشكوك تطفو على السطح كأسئلة تبحث عن إجابة : وقد يتحول هذا الموروث المعرفي القديم إلى اتجاهات عقائدية جديدة من خلال توليفة بينه وبين المسيحية وهكذا كانت مهمة أوغسطين " في كتابه المعنون في رسالة في الثالوث أنْ يعقل المذهب المسيحي القائل بأن الله ثالوث واحد ولما أنّ كثيرا من الناس كانوا يرون أنّ مذهب التثليث ينطوي على شيء من التناقض. فقد أخذ أوغسطين على عاتقه في رسالته، مهمّة حل هذا التناقض وجعل مذهب التثليث مقبولا من جهة العقل". ويخدم العقل الإيمان عند أوغسطين في عدة نقاط من بينها:

توضيح العقائد الإيمانية وفك غموضها وإزالة تناقضاتها وتبسيطها للذهن العادي وجعل ما هو متناقض من العقيدة المسيحية معقولا ومفهوما وليس للعقل ان يتساءل عن مضمون العقائد المسيحية واسرارها بل عليه ان يسلم به كما هي. يقول اوغسطين" ان نلتزم بهذه القاعدة بان الشيء الذي لم نحط به علما ينبغي ان نسلم به بمقتضى رسوخ ايماننا وثبات عقيدتنا"

الدفاع عن العقائد المسيحية ضد المتشككين والهراطقة والمتفلسفة الوثنيين بالحجج العقلية عن ضرورة الايمان اولا ثم التعقل ثانيا فالمسيحي الحقيقي هو الذي يرفع شعار امن كي تتعقل

فالعقل لا يصبح عقلا كاملا إلا بالإيمان أي " على العقل أنْ يحول العقائد الايمانية الى حقائق يقينية معقولة وهذا ما يعبر عنه بالقول : أؤمن من أجل أنْ أتعقل فالإيمان أوّلا ثم يأتي العقل بعد ذلك. فيحل الشيء من حقيقية ايمانية إلى حقيقة برهانية"

مفهوم الفلسفة المسيحية:

الواضح من أعمال أوغسطين أنّ هناك تمييز بين النقل والوحي من جهة والعقل والفلسفة من جهة ثانية ولكن هذا التمييز لا يعني لديه تعارضهما، كل طرف في مقابل الطرف الآخر بل بالعكس نجد اوغسطين يماهي ويطابق العقل بالإيمان وأنّ التعقل الصحيح يؤدي الى الايمان الحقيقي ولما كان العقل لوحده يضل عن إدراك الحقيقة فالوحي هو الذي يقود العقل ويوجهه لأنه مصدر الحقيقة باعتباره كلام الرب. وهكذا فإنّ الفيلسوف المسيحي هو الذي يعرف ويدرك الوجود من خلال نصوص الوحي. بهذا المعني يكون الايمان هو الاطار العام الذي يحدد للعقل نظره للوجود ويهب له مقولاته التي بها يدرك ويتفكّر في ظواهره واجزائه. وهذا هو معنى شعار " امن كي تتعقل "

فالإيمان يمنح الفلسفة المسيحية مقولاتها الثابتة لمعرفة الوجود والانسان والتاريخ امّا أنْ يكون العقل سابقا عن الايمان، فهذا لا يضمن من شرّ الوقوع في الضلال والخطأ وهكذا فإنّ " الفلسفة المسيحية هي العقل في محاولته فهم تعاليم المسيحية فالعقائد الأصلية الأولى قد اتت بها المسيحية وطالبت باعتقادها وعلى العقل من بعد أنْ يعرف هذه الحقائق الايمانية أنْ يحول هذه الى حقائق يقينية معقولة"

المحاضرة الخامسة: عبد الحميد بن باديس

نسبه ومولده:

هو عبد الحميد بن مُحَمَّد المصطفى بن مكي بن باديس ولد سنة 1889م الموافق ل 1308ه فكان الولد البكر لأبويه من أسرة قسنطينة مشهورة بالعلم والثراء والجاه وكانت منذ القدم ذات نفوذ ومسيرة للسياسة والحكم في المغرب الإسلامي ونبغ من هذه الأسرة شخصيات تاريخية لامعة من بلكين بن زيري والمعز بن باديس

مسيرته العلمية :

حفظ بن باديس القرآن على يد الشيخ مُحَمَّد المداسي وهو لم يتجاوز سن الثالثة عشر من عمره وقد أم الناس في صلاة التراويح لمدة ثلاثة سنوات متتابعة من عمره ذاك وقد تتلمذ على يد الشيخ أحمد أبو حمدان لونيسي " الذي كان منتميا إلى الطريقة التجانية فتعلم على يديه مبادئ اللغة العربية والمعارف الإسلامية كما وجهه وجهة علمية أخلاقية، وفي سنة 1908م سافر إلى تونس وهو في عمر التاسعة عشر وانتسب إلى جامع الزيتونة " فأخذ يتلقى الثقافة الإسلامية العربية ويأخذ عن جماعة من أكابر علماء الزيتونة أمثال المفكر الصدر مُحَمَّد النخلي القيرواني المتوفي في رجب سنة 1342ه الموافق ل 1924م وتتلمذ على يد الشيخ مُحَمَّد الطاهر بن عاشور والشيخ الخضر بن الحسين الجزائري الأصل فدرس عنده امنطق وغيرهم من العلماء وتخرج بشهادة تطويع في سنة1911م وعمره 23سنة "

" أصدر بعد تأسيس المطبعة الجزائرية الإسلامية عدة جرائد من أشهرها المنتقد والشهاب والسنة والشريعة والصراط والبصائر لتبليغ الدعوة الإصلاحية السلفية وفي 1931م تم تأسيس جمعية العلماء المسلمين فانتخب الشيخ رئيسا لها "

تأثره بشيوخه :

لا شك أن شيوخ الإصلاح في جامع الزيتونة كان لهم تأثير كبير في الفكر الإصلاحي الباديسي ونذكر منهم على الخصوص حمدان لونيسي ومُحَمَّد النخلي وقد أخذ منهما مبادئ كان لها تأثير كبير في شخصيته العلمية إذ يقول صاحب جمعية العلماء المسلمين في نص مهم ما يلي "وإني لأذكر للأول

(حمدان لونيسي) وصية أوصاني بها وعهد عهد به إلي وأذكر أثر ذلك العهد في نفسي ومستقبلي وحياتي وتاريخي كله فأجدني مدينا لهذا الرجل بمنة لا يقوم بها الشكر فقد أوصاني وشدد علي ألا أقرب الوظيفة ولا أرضاها ما حييت ولا أتخذ علمي مطية لها ،كما كان يفعل أمثالي في ذاك الوقت وأذكر للثاني (مُحَّد النخلي) كلمة لا يقل أثرها في ناحيتي العلمية عن أثر تلك الوصية في ناحيتي العلمية وذلك أني كنت متبرما بأساليب المفسرين وإدخالهم لتأويلاتهم الجدلية واصطلاحاتهم المذهبية في كلام الله ضيق الصدر من اختلافهم فيما لا اختلاف فيه من القرآن الكريم وكانت على ذهني بقية غشاوة من التقليد واحترام آراء الرجال حتى في دين الله وكتاب الله فذكرت يوما الشيخ النخلي فيما أجده في نفسي من التبرم والقلق فقال لي اجعل ذهنك مصفاة لهذه الأساليب المعقدة وهذه الأقوال المختلفة يسقط الساقط ويبقى الصحيح وتستريح ...فو الله لقد فتح بهذه الكلمة القليلة آفاق واسعة لا عهد له بها "

وهذا معناه أن هاتين الوصيتين كانتا لهما تأثير في تحديد مسيرة الشيخ عبد الحميد بن باديس العلمية فالوصية الأولى كانت من نتائجها أن تفرغ للعلم والتدريس وتنوير الشعب الجزائري ومن نتائج الوصية الثانية أن استطاع أن يتجاوز التفسيرات الكلامية والصوفية والجدلية على القرآن الكريم والرجوع إلى فهم سلف الامة.

المشروع الاصلاحي عند عبد الحميد بن باديس :

ويمكن أن نلخص المشروع الاصلاحي عند عبد ابن باديس في المبادئ التي أوردها في جريدته الشهاب الصادرة في 11 جوان 1937. ويمكن اعتبار هذه الاصول هي المشروع الاصلاحي ككل لجمعية العلماء المسلمين وتتضمن : الاصلاح الديني، الاصلاح التربوي، الدفاع عن العقيدة الاسلامية، محاربة البدعة والخرافة وتحرير العقل

جمعية العلماء المسلمين وأصولها:

•الإسلام هو دين الله الذي وضعه لهداية عباده، وأرسل به جيع رسله،وكمله على يدي نبيه مُحَّد الذي لا نبي من بعده.

•الإسلام هو دين البشرية الذي لا تسعد إلا به وذلك لإنه:

-أولا- كما يدعو إلى الأخوة الإسلامية بين جميع المسلمين و يذكر بالأخوة الإنسانية بين البشر أجمعين.

-ثانيا- يسوي في الكرامة البشرية والحقوق الانسانية بين جميع الاجناس والالوان

ثالثا – لانه يفرض العدل فرضا عاما بين جميع الناس بلا ادنى تمييز

رابعا- يدعو الى الاحسان العام

خامسا –يحرم الظلم بجميع وجوهه

سادسا- يمجد العقل ويدعو الى بناء الحياة كلها على التفكير

سابعا – ينشر دعوته بالحجة والاقناع لا بالختل والاكراه

ثامنا – يترك لأهل كل دين دينهم يفهمونه ويطبقونه كما يشاءون

تاسعا – شرك الفقراء مع الاغنياء في الاموال وشرع مثل القراض والمزارعة مما يظهر به التعاون العادل بين العمال وارباب الاراضي

عاشرا – يدعو الى رحمة الضعيف فيكفي العاجز ويعلم الجاهل ويرشد الضال ويعان المضطر ويغاث الملهوف وينصر المظلوم ويؤخذ على يد الظالم

حادي عشر- يحرم الاستعباد والجبروت بجميع وجوهه

ثاني عشر - يجعل الحكم شورى ليس فيها استبداد

•القران هو كتاب الاسلام

•السنة القولية والفعلية الصحيحة تفسير وبيان للقرآن

•سلوك السلف الصالح الصحابة والتابعين واتباع التابعين تطبيق صحيح لهدى الاسلام

•فهوم ائمة السلف الصالح اصدق الفهوم لحقائق الاسلام ونصوص الكتاب والسنة.

•البدعة كل ما أحدث على أنه عبادة وقربة ولم يثبت عن النبي مُحَمَّد ﷺ فعله وكل بدعة ضلالة.

•المصلحة كل ما اقتضته حاجة الناس في أمر دنياه ونظام معيشتهم وضبط شؤونهم وتقدم عمرانهم مما تقره أصول الشريعة.

•أفضل الخلق هو مُحَمَّد ﷺ لأنه:

-أولا- اختاره الله لتبليغ اكمل شريعة إلى الناس عامة

-ثانيا- كان على أكمل اخلاق البشرية

-ثالثا- بلغ الرسالة ومثل كمالها بذاته وسيرته

-عاش مجاهدا في كل لحظة من حياته في سبيل سعادة البشرية جمعاء حتى خرج من الدنيا ودرعة مرهونة

•أفضل أمته بعده هم السلف الصالح لكمال اتباعه له

•افضل المؤمنين هم الذين آمنوا وكانوا يتقون وهم الأولياء والصالحون فحفظ كل مؤمن من ولاية الله على قدر حظه من تقوى الله.

•التوحيد أساس الدين فكل شرك – في الاعتقاد أو في القول أو في الفعل -فهو باطل مردود على صاحبه

•العمل الصالح المبني على التوحيد به وحده النجاة والسعادة عن الله فلا النسب ولا الحب ولا الحظ بالذي يغني على الظالم شيئا

•اعتقاد تصرف احد من الخلق مع الله في شيء ما شرك وضلال ومنه اعتقاد الغوث والديوان

•بناء القباب على القبور ووقد السرج عليها والذبح عليها لأجلها والاستغاثة بأهلها ضلال من أعمال الجاهلية ومضاهاة لأعمال المشركين فمن فعله جهلا يعلم ومن اقره ممن ينسب إلى العلم فهو ضال مضل

•الأوضاع الطرقية بدعة لم يعرفها السلف ومبناها كلها على الغلو في الشيخ والتحيز لإتباع الشيخ وخدمة دار الشيخ وأولاد الشيخ إلى ما هنالك من استغلال واذلال واهانة لأهل الاذلال ...والاستغلال...ومن تجميد العقول وإماتة للهمم وقتل للشعور وغير ذلك من الشرور...

•ندعو إلى ما دعا إليه الاسلام وما بيناه منه من الاحكام بالكتاب والسنة وهدي السلف الصالح من الأئمة مع الرحمة والإحسان دون عداوة أو عدوان

•الجاهلون والمغرورون أحق الناس بالرحمة

•المعاندون المستغلون أحق الناس بكل مشروع من الشدة والقسوة

•عند المصلحة العامة من مصالح الأمة يجب تناسي كل خلاف يفرق الكلمة ويصدع الوحدة ويوجد للشر الثغرة ويتحتم التآزر والتكاتف حتى تنفرج الازمة وتزول الشدة باذن الله بقوة الحق وادراع الصبر وسلاح العلم والعمل والحكمة قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة ومن اتبعني وسبحان الله وما انا من المشركين. عبد الحميد بن باديس بقسنطينة بالجامع الاخضر اثر صلاة الجمعة ربيع الاول 1356

آراءه التربوية:

لقد كانت للتربية مكانة هامة في فكر ابن باديس، بل تعتبر الركيزة الاساسية التي تقوم عليها النهضة فالفرد هو اساس المجتمع وصلاح الفرد يؤدي بالضرورة الى صلاح المؤسسات والدولة ككل ، فلا يمكن تأسيس مجتمع قوي ومتين ومتماسك دون ان يكون الفرد صالحا، أما من يقوم بهذه المهمة فهي التربية التي تبتدئ بادئ ذي بدء من هذا الانسان ولا تتجاوزه فإذا تم اصلاحه سينعكس ذلك ايجابا على المجتمع" والشيخ ابن باديس من المدرسة التي ترى أنّ الاصلاح الاجتماعي يقوم على اساس أنّ الاخلاق تنبع من الداخل وان الوسيلة هي تطهير القلوب وتغيير النفوس وهذا يؤدي الى تغيير المؤسسات الاجتماعية"2

ولا يعني هذا أن التربية يجب أن تكون منفصلة عن تأثيرها الاجتماعي مثلما يفهمها بعض المتصوفة بالإنكفاء على الذات والتقوقع حولها من خلال ممارسة الوجد والحضرة والرياضة الروحية بل يجب أن تكون التربية النفسية مقرونة بالعمل والتأثير في المجتمع

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة في هذه المحاضرات:

عبد الحميد بن شنهو، ملك العالم يوبا الثاني وزوجه كيلوباطرة سيليني ، (الجزائر : الطباعة الشعبية** للنشر، 2007)

اصطفيان أكصيل، تاريخ شمال افريقيا القديم ،ترجمة مُحَّد التازي سعود، الجزء الثامن (الرباط: مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، 2007)

عبد السلام بن ميس ، مظاهر الفكر العقلاني في الثقافة الأمازيغية القديمة دراسة في تاريخ العلوم الصورية .وتطبيقاتها)، ط 2، (الرباط: دار إيدجال ، 2010)

-أبو العيد دودو، مقدمة كتاب لوكيوس أبوليوس ، الحمار الذهبي ، ترجمة: أبو العيد دودو ط3 (بيروت :دار العربية للعلوم، 2004)

مُحَّد دومير، عماد سعودي، دوناتوس ،الثائر النوميدي الذي أنهى وجود الكاثوليكية في إفريقيا، القصة الكاملة كما .دون صفحة PDFلم تروى من قبل ، مراجعة وتقديم :مولدي عاشور ،نسخة

-روبين دانيال ،التراث المسيحي في شمال إفريقيا ، دراسة تاريخية من القرن الأول إلى القرون الوسطى، ترجمة: سمير مالك

اوغسطين، الاعترافات، ترجمة: يوحنا الخوري يوحنا الحلو ط4(بيروت: دار المشرق، 1991)،

يوسف كرم، تاريخ الفلسفة الاوروبية في العصر الوسيط(الجزائر/ اصدارات العوادي،(دت))

عبد الرحمن بدوي، فلسفة القرون الوسطى

عبد الحميد بن باديس، كتاب آثار بن باديس الأعمال الكاملة ،المجلد الأول ، الجزء الأول إعداد وتصنيف الدكتور عمار طالبي، ط06(الجزائر: دار الوعي ،2016م)

جريدة الشهاب 11 جوان 1937